144321

محمّد بوذينَة

الموسوعة الموسيقية

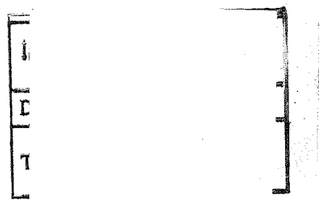

© حقوق الطبع والنشر والترجمة والاقتباس
محفوظة للمؤلف

تمهيـــد

إن الفنون ومنها الموسيقى تقف في مقدمة العناصر التي تكوّن الحضارة الانسانية وذلك بما تحققه الموسيقى من إبداع يُساهم في تعميق مشاعر الناس ونضوج ذوقهم وسموّ نظرتهم الى الوجود .

والموسيقى غاية تقصد لذاتها ووثيقة إنسانية مهمة تتمسك بها الشعوب بالرغم من الاختلافات الكثيرة الموجودة بينها من لغة ولون وثقافة ودين وطرق معيشة .

يعتقد علماء تاريخ الحياة الموسيقية بأن كلمة (موسيقى) يونانية الأصل ، وقد كانت تعني سابقًا الفنون عمومًا ، غير أن هذه التّسمية انفردت فيما بعد وأصبحت تطلق على لغة الألحان فقط ، أي الموسيقى ، وهي صناعة يبحث فيها عن تنظيم الأنغام والعلاقات فيما بينها وعن ايقاعها وأوزانها .

إن إسم «موسيقى» مشتق من لفظ « موسي » جمع موس ويعني هذا اللفظ : الآلهات التسع أو بعبارة أصح المعبودات المقدسة لدى اليونانيين القدماء ، اللواتي كن يتولين صيانة مختلف العلوم والفنون ، حسب ما جاء في الأساطير والمعتقدات اليونانية القديمة .

والآلهات التسع هن كما يلي :

« أطرب » للموسيقى ، « كليو » للتاريخ ، « تالي » للملهاة ، « مليومين » للمأساة ، « تريسيكور » للرقص ، « أراتو » للرثاء ، « بوليميني » للشعر ، « أوراني » للفلك ، « كاليوب » للبلاغة .

وقد جاء في التاريخ ان اليونانيين القدماء ، كانوا يقدسون ويقدرون الفنون العقلية المحسوسة ويضعونها في أعلى درجة ، كما كانوا ينسبونها الى معبوداتهم التي كان لها اتصال وثيق بالفن حسب اعتقاداتهم .

وكان من بين هذه الفنون حسب ترتيبها :

الموسيقى ــ الشعر ــ فنّ الحساب والجبر ــ فنّ الهندسة ــ والعلم الموزون ذي الحركة الموحدة المبنيّة على القواعد الحسابية .

ومع مرور السنين أضافوا الى « موسي » حرفي « يك » الذي يشير الى علم من العلوم أو الى مادة من المواد ، أو فنّ من الفنون ، كالذي استعملوه في العلوم والمواد والفنون الآتية :

أريتمتيك ــ أولمبيك ــ ميتافيزيك ــ دراماتيك ــ إلى غير ذلك من الأسماء الأخرى ... قال أحد المفكرين :

« إن الموسيقى كانت وما زالت تعتبر وحيًا مجهولًا وسؤالًا معقّدًا حيّر عقول العديد من المفكرين منذ مئات السنين » .

وتبقى الموسيقى دائمًا تتعلق بالمشاعر ، وليس بالعقل ولا بالفهم والخيال كما يعتقده البعض ، ولا تخضع للمنطق بنفس الخضوع الذي يطرأ على بعض الفنون الأخرى المرتكزة على مدركات عقلية ، كالشّعر وبعض الأعمال الدرامية .

إن الموسيقى علم رياضي يبحث عن طبيعة النّغم من حيث الاتفاق والتنافر ، وطبيعة الأزمنة (ايقاعات وأوزان الأنغام) .

والموسيقى لغة غير أنها ليست لغة عالمية كما يعتقده عدد من الناس ، انما هي لغات مختلفة إذ ان لكل شعب لغته الموسيقية ذات الخصائص المميّزة .

واذا كانت الموسيقى من حيث أسسها واحدة في كل مكان كونها تنسيق الأصوات بطريقة محبّبة للأذن وانها من حيث أصولها مرتبطة بمعتقدات الانسان وطباعه وهي لغة الروح والمشاعر والخواطر ، فانها نظرًا الى شكلها تنقسم الى عدة لغات متباينة في تقنياتها ومفاهيمها الجمالية والتربوية ، وان لكل منها خصائص تكمن في المادة الموسيقية ذاتها من حيث الابعاد الموسيقية وتكويناتها ، المقامات ، الزخارف ، وحدة اللّحن أو تعدّده ، تنظيم الايقاعات وأنواعها ، أشكال التّلحين، تقنيات الأداء الصوتي والآلي ، الارتجال ، وسائل التعليم الشفاهي أو المكتوب، الآلات الموسيقية، الوظيفة الاجتماعية كل ذلك يلعب دورًا مهمًا في تحديد نوع اللغة الموسيقية وانتمائها الى هذا الشعب أو ذاك .

تنقسم صناعة الموسيقى الى قسمين : الصّناعة العملية ، والصّناعة النظرية ، وهذه شأنها شأن العلوم المعروفة التي تؤخذ مادتها من أصل الأمر الواقع على أحسن الوجوه الطبيعية في الألحان ولوازمها . أما الصّناعة العملية فانها تختلف باختلاف المواهب والاستعداد الطبيعي لهذه الصّناعة ، وهي في ذاتها تنقسم الى قسمين : أولهما هيئة الصّيغة ، وهي استعداد من يصنع الألحان فقط دون أن يمكنه تأديتها بصوت حسن في الكيفية ، والثاني هيئة الأداء ، وهي هيئة من يؤدّي الألحان المصوغة تأدية صالحة لا تتوفر كثيرًا لدى من له هيئة صناعة الألحان . وظاهر أن هيئة الصّناعة هي أصل لهيئة الأداء ، وهذه قد تعد في حكم تحسين لهيئة الصّيغة والعلم بصناعة الموسيقى ، وهو ما يسمّى بالموسيقى النظرية ، يحيط بأطراف الموضوع في خمسة علوم أساسية ، هي: المناسبات الصوتية وأصناف التأليف ، ثم جماعات النّغم وأنواعها ، ثم طبوع الهيئات اللحنية ، وهي ما يسمّونها بالمقامات ، ثم الايقاعات وأوزان الأجناس وترتيباتها ، ثم علم التلحين الغنائي وفنون التركيب النّغمي والموسيقي البحت . هذا بخلاف اصطلاحات التّدوين وكتابة النّغم في مدرجاتها الصّوتية . ولما كانت الموسيقى لا تصل الى الانسان إلا عن طريق حاسة السّمع، ترتب على ذلك أن أصبحت فنًا من الفنون التي تعتمد على عنصر الزّمن حتى ان قولنا طبقة مرتفعة أو طبقة منخفضة أو الطّابع الصّوتي هو من قبيل التّيسير باستعمال المفاهيم المستمدّة من العالم المنظور . ويعتبر عنصر الايقاع من العناصر الأساسية التي تعتمد عليها الموسيقى ، وهو العنصر الذي ينشأ عن الدّوافع الحركية الصّادرة عن جسم الانسان ، أمّا اللّحن الايقاعي فيصدر أساسًا من طاقة الصّوت الانساني الذي يعد بلا شك أول آلة موسيقية ينبعث منها النّغم ، وكذلك الغناء شأنه كشأن الايقاع ، ما هو إلّا رد فعل حركي صادر من الجسم الانساني.

وفي معالجته لمسألة الغناء تعرّض الإمام أبو حامد الغزالي الى آراء بعض الفقهاء الذين رفضوه ثم ذهب الى قول ما يلي :

« لله تعالى سرّ في مناسبة النّغمات الموزونة للأرواح حتى انها لتؤثر تأثيرًا عجيبًا ... فمن الأصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس ولا ينبغي أن يظن ان ذلك لفهم معاني الشّعر بل هذا جارٍ في الأوتار حتى قيل : من لم يحركه الرّبيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج....» . .

ويقول مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابه «النظرات» متحدثًا عن الغناء : «الغناء بقية خواطر النّفس التي عجز عن ابرازها اللّسان ، فأبرزتها الألحان ، فهو أفصح النّاطقين لسانًا ، وأوسعهم بيانًا ، وأسرعهم نفاذًا الى القلوب وامتزاجًا بالنّفوس ، واستلاء على العقول وأخذًا بمجامع الأفئدة ، وبيان ذلك أن النّطق ثلاث طبقات تختلف درجاتها باختلاف درجات الابلاغ والتأثير فيها ، فأدناها النّثر وأوسطها الشّعر ، وأعلاها الغناء ...».

الموسيقى عبر العصور

الموسيقى العربية

بواسطة التّراث الفنّي تعرف وتقاس حضارات الأمم ومدى تقدمها وازدهارها في شتّى المجالات ، فاذا أراد المرء أن يتعرّف على حضارة أمة من الأمم ، عليه أن ينظر أولًا وقبل كل شيء الى تراثها وفنّها وثقافتها ، كما يقول المثل : لا وجود لأمة بدون تراث وثقافة.

والأمة العربية لها تراث حافل وعريق يمتاز بأصالة سليمة من الشّبهات والتحريف ، فلهذا نلاحظ أن الموسيقى العربية عمومًا رغم اختلاف شعوبها من حيث العادات والتقاليد والتباعد الجغرافي ، هي موسيقى موحدة ومتشابهة في الاستعمال والألحان والمعاني وما شبه ذلك...

وقد استطاعت الموسيقى العربية أن تحافظ على أصالتها ومكانتها طيلة قرون عديدة، كما استطاعت أن تصمد في طريق التيّارات الموسيقية التي كادت أن تكون دخيلة عليها لولا صمودها الصارم ، فاذا رجعنا الى الحقبة التي بدأ فيها العرب استعمال الموسيقى قبل ظهور الاسلام ببعض سنين ، سنجدها حسب ما جاء في تاريخ الموسيقى العربية وحسب ما روي عن الباحثين ، أنها كانت موسيقى تقليدية بدائية كانت تقتصر فقط على بعض الآلات الايقاعية والآلات العتيقة كالدّفوف والطّبول والمزامير والأبواق .

وبفضل الممارسة والاحتكاك اللذين كانا قائمين بين القبائل العربية، وبفضل الرحلات التي كان يقوم بها أهل التجارة من العرب الى البلدان الأخرى كالصين والفرس ، أخذت الموسيقى العربية تتطور وتتحسن الى أن وصلت الى أوج عزها ، حيث أصبحت تستعمل فيها الآلات الموسيقية الجديدة العربية الصنع كالعيدان والكاسات والقانون الى غير ذلك من الآلات الأخرى .

لقد اهتم العرب اهتمامًا بالغًا بالموسيقى ونظروا الى هذه الصناعة نظرة إجلال واحترام وحظي المجيدون فيها بكل عناية وتقدير، وشغف بها الخلفاء والأمراء والقضاة والفلاسفة والعلماء وأعطوها حقها من الرعاية والتقدير...

ولقد حفل تاريخ الموسيقى العربية بأسماء لامعة كثيرة، وجميعها لم تقتصر على الدراسة النظرية والفلسفية فحسب ، بل درس هؤلاء ماهية الموسيقى وماهية النغم المطلق والايقاع والأوتار والأوزان، كما نجد في كتاباتهم ومؤلفاتهم عناية ودقّة في وصف الآلات الموسيقية واهتمامهم بالتجربة والاختبار ، كما نجد أيضًا تراجم لحياة المغنين والموسيقيين وسيرهم .

لقد أبدع المفكرون والعلماء العرب في علم الموسيقى ووصفوا له القواعد والأصول وسموا به سمو النفس الرفيعة المتعالية ، واحترموا المجيدين فيه وأعلوا من شأنهم ، كيف لا وأن الموسيقى مرآة صادقة تعكس الوجه الحضاري لأي أمة من الأمم ونصيبها من الرقي أو التخلف ، ولا يمكن أن تقوم نهضة موسيقية إلا في أمة ذات قيمة حضارية . لكن يجب أن لا نغفل عن حقيقة واقعية وهي أنّ للموسيقى مكانتها في الفكر العربي في كل العصور . وتناول الكتاب والمؤرخون والفلاسفة والعلماء والفقهاء البحوث الموسيقية في شتى صورها وأنواعها ، وتركوا لنا مخطوطات كثيرة مازال معظمها رهين «المحبس» يتطلع الى النور دون أن تتاح له فرصة الظهور ، وأن الكثير من هذه المخطوطات لم يتناوله الشرح والبحث والتحقيق . فدراسة المخطوطات الموسيقية تتطلب دراية خاصة وثقافة واسعة تتصل بالتاريخ واللغة والموسيقى والفيزياء ، حيث يمكن تدارك أخطاء النسّاخ ودراسة النصوص دراسة علمية محققة .

العصر الجاهلي
(من القرن الأول الى القرن السادس الميلادي)

عرف بالعصر الجاهلي لأن عرب الجاهلية كانوا يجهلون تعاليم الاسلام . وفي الحقيقة لم تكن أيام جهل تام ، بل بداية لحضارة ساعدت على الحفاظ على التراث العربي القديم .

ويتفق عامة المؤرخين على أن الرعيل الأول من العرب المهاجرين من بلاد العرب الجنوبية بدأ يتحرك شمالًا حوالي القرن الثاني الميلادي . لذا بدأت الموسيقى العربية تزدهر وتنمو في ثلاث مناطق هي سوريا والعراق وغرب الجزيرة العربية . وكانت سوريا في ذلك الوقت تحتفظ بالكثير من